E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الكتاتيب القرآنية والثقافة الإسلامية في إفريقيا الغربية: مدينتي تنبكتو وغاو أنموذجاً

Quranic Schools and Islamic Culture in West Africa:
The Cities of Tambouctou and Gao as an example.

أ.د. عبد القادر صحراوي

جامعة سيدي بلعباس

sahraoui195922@yahoo.com

تاريخ الإيداع: **2019/01/21** تاريخ النشر: **2019/03/05**

الملخص:

لقد حظيت تنبكتو وغاو خلال القرن 16م بما لم تحظ به مدن أخرى في إفريقيا الغربية، وكان من أبرز العوامل التي جعلت المدينتين تزدهران بهذا الشكل: تطور الحركة التعليمية، وكثرة العلماء، ما جعلها قبلة لأعداد هائلة من الطلاب القادمين من مختلف المناطق في إفريقيا الغربية. وبالتالي ساهمت المدينتان في نشر الثقافة الإسلامية في سهوب السودان الغربي، وتحولتا إلى مركزين أساسيين لنشر العلوم الإسلامية في العالم الإسلامي، كما أسفر ذلك عن تحضر الساكنة وصلاح أحوالها.

الكلمات الدالة:

المدارس القرآنية ، تنبكتو ، غاو ، الثقافة الإسلامية ،الأسقيا

Abstract:

In the 16 th century, Tambouctou and Gao enjoyed the same benefits as other cities in West Africa. The two main factors that made the two cities flourish were the evolution of the educational movement and the large number of scholars, making it a huge gathering of students coming from different regions of West Africa. Thus, the two cities contributed to the spread of Islamic culture in the western Sudan plains, and turned into two centers for the dissemination of Islamic sciences in the Islamic world, and resulted in the public spirit of the population and live in a good conditions.

Key Words :

Quranic schools , Tambouctou, Gao , Islamic culture , Asakia.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

وجد الإسلام طريقه إلى غرب إفريقيا منذ القرن العاشر، وساهم في التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي للمنطقة وخاصة الحواضر المشهورة مثل تنبكتو وغاو وجني. يذكر الكثير من المؤرخين أن السلم والإقناع طبعا انتشار هذا الدين العظيم في هذه المنطقة، ولا شك أن قدوم عدد كبير من التجار والفقهاء والدعاة المسلمين قد أسهم كثيرا في التمكين للإسلام في إفريقيا الغربية[1]. و خلال القرن 16م بلغت الحضارة الإسلامية أوجها في السودان الغربي، أما الحقبة الممتدة بين القرن 08م والقرن 15م، فقد كانت فترة تطورات متلاحقة لبلوغ مرحلة الأوج هذه. وأعقب ذلك تكوّن عدة تنظيمات حكومية تخطت الأشكال القبلية السائدة آنذاك إلى أن وصلت إلى المرحلة الوطنية في نهاية القرن 15م. وفي السياق ذاته نشير إلى تأسيس ثلاث ممالك كبرى منها مملكة غانا المنحصرة بين جنوب موريتانيا وشمال السنغال حاليا، ومملكة مالي من طرف قبائل الماندينغ، ثم قامت مملكة السنغاي وتعززت قوتها في عهد الأسقيا محمد الأول (1493م- 1528م) الذي تمكن من إخضاع القبائل والتمكين للإسلام وتخطي الأشكال القبلية القديمة وهذا لأول مرة في تاريخ السودان الغربي حتى القرن السادس عشر[2].

هذا واعتنى الأساقي (سلاطين سنغاي) بنشر الثقافة الإسلامية العربية، خاصة بعد ظهور العديد من الحواضر الإسلامية التي تحولت إلى مراكز ثقافية إسلامية وهيأت الأوضاع لبناء المدارس والكتاتيب القرآنية بل والجامعات، كل هذا من أجل التمكين لبناء حضاري إسلامي متين.

1- مظاهر الثقافة الإسلامية العربية في السودان الغربي:

انتشر الإسلام في إفريقيا الغربية انتشارا كبيرا، ويعود الفضل في ذلك إلى الرحالة والتجار العرب، ما أدى إلى نمو العلاقات بين الأفارقة والوافدين الجدد. ولعل أبرز مظاهر الثقافة والحضارة الإسلامية في المنطقة، الحماس المتزايد للعلم والتعلم، خاصة ما يتعلق بالقرآن الكريم حفظا وتفسيرا. ولما ورثت مملكة مالي آثار مملكة غانة، شق الإسلام طريقه إلى مختلف أرجائها. وأرسل سلاطين مالي مثل موسى وأخوه سليمان بعثات إلى مدن بلاد المغرب لمتابعة الدراسة. كما اشترى السلطان موسى أثناء حجه الكثير من الكتب من القاهرة ومكة، وأنشأ إثر عودته من الحج في 1325م أو 1326م مدرسة لتعليم اللغة العربية والقرآن. وتجدر الإشارة إلى التداخل الاصطلاحي بين المدرسة القرآنية والكتاب، ولذلك فإن تعرضنا بالحديث عن المدارس إنما يكون القصد به الكتاتيب المنتشرة في إفريقيا الغربية وسائر البلاد الإسلامية.

ولقد بذل سلاطين إفريقيا الغربية جهودا جبّارة لتمكين للغة العربية والإسلام، حيث بدأوا بأنفسهم وحاشيتهم، فأتقنوا لغة القرآن والكتاب الرباني أي القرآن. ويظهر أن القرن 14م هو عصر الأوج في مملكة مالي، فقد سجل نهضة علمية راقية، وتشير الكثير من المصادر التاريخية إلى أسماء الفقهاء والعلماء في مختلف مدن غرب إفريقيا، وارتفاع مستوى الثقافة كما هو الشأن في مدينة تكادا في شرق مدينة غاو والتي تمثل إلى جانب تومبكتو حاضرتين قرآنيتين عظيمتين. كما

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

حظي أهل إفريقيا الغربية برواق خاص في جامع الأزهربمصر، يتخرج منه هؤلاء ليعودوا إلى بلدانهم رسلا للثقافة العربية والإسلام، على أن هذه الحركة قد اتسعت وأصبحت أكثر نضجا خلال القرنين 15 و16م، إبان فترة الأوج التي ميزت الحواضر الإفريقية خاصة مدن تومبكتو وغاو[3].

2- حاضرة تنبكتو والكتاتيب القرآنية:

يرجع تأسيس مدينة تنبكتو إلى القرن 11م، وكان ذلك من طرف طوارق إيمغراشن الذين اتخذوها مركزاً تجارياً لهم، وقد قيل إن اسمها مستوحى من اسم عجوز كانت تحرس لهم مخازنهم وبضائعهم، وخلال حكم الأسقيا موسى في القرن 14م بنى لنفسه قصرا ضخما، كما أسس بها أول مسجد تحت اسم "دنقزير" وذلك على يد المهندس الغرناطي الشاعر الساحلي الذي رافقه في رحلة العودة من الحج في 1326م. وفي نفس الوقت تقريبا هاجر العديد من علماء مدينة والاتا التي شكلت المركز الثقافي الأول في غرب السودان، إلى مدينة تنبكتو الأمر الذي حوّلها إلى مركز ثقافي مزدهر. وما أن حلّ القرن 16م حتى تحولت تنبكتو إلى مركز تجاري وثقافي عظيم، كما انتظمت شوارع المدينة وأخذت بناياتها الشكل المغربي-الأندلسي، وفي هذا السياق يقول السعدي: «وما تكامل البناء في تنبكتو في الالتصاق والالتئام إلا في أواسط القرن العاشر (هجري)، في عهد الأسقيا داود»[4]. ووصفت المدينة بأم مدائن السودانيين سواء في العلم والحضارة أو في العمران والتجارة[5]. وخلال نفس القرن أي 16 م تجاوز عدد سكان المدينة 30 ألفا، ولم يتجاوزها في ذلك غير مدينة غاو العاصمة السياسية للمملكة السنغائية[6].

واحتوت مدينة تنبكتو على ثلاث جوامع كبيرة، ما يشير إلى نشاط تعليمي كبير، حيث تستغل هذه الجوامع في تعليم القرآن وأصول الفقه والتفسير، وغالبا ما بنيت بجوارها مدارس وكتاتيب لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم، في الوقت الذي انتشرت فيه الكثير من هذه الكتاتيب في الأرياف السنغائية. ويمكننا أن نشير إلى مساجد تنبكتو الثلاثة وهي: مسجد الونكريين (دنكربير أو دنقربير كما أسلفنا)، ومسجد سنكري، ومسجد سيدي يحي. ومما سبق يظهر أن تنبكتو تحولت في القرن 16م إلى مركز ثقافي حيث انتشر التدريس ووفد الطلاب والأساتذة من مختلف المناطق، ناهيك عن مساهمة علماء بارزون وافدون في تنشيط التعليم وتعميقه إلى جانب علماء محليين بارزين. أما الوافدون فنذكر منهم محمد بن عبد الكريم المغيلي، وسيدي يحي التادلسي، ومخلوف البلبالي وإبراهيم الزلفي وعدد هام من علماء منطقة توات أيضا[7].

لقد أشرف المدرسون في الكتاتيب على تحفيظ الناشئة القرآن الكريم، ليلا ونهارا، واستعمل الحطب الذي يتبرع به الطلاب في إيقاد النيران ومواصلة حفظ القرآن الكريم، ووصل عدد كتاتيب مدينة تنبكتو إلى مائة وثمانين (180) كتابا[8]. وحرص السودانيون على حفظ أبنائهم القرآن

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الكريم وتعليمهم الأخلاق منذ الصغر، في الكتاتيب والمدارس القرآنية، بل وكانوا يجبرونهم على الدوام ويراقبون استيعابهم لمختلف أجزاء القرآن العظيم[9].

ويذكر صاحب "الفتاش" (كعت محمود)، أن المدارس القرآنية، أو الكتاتيب كانت تبنى غالبا خارج المساجد الكبيرة وقد تراوحت في تلك الفترة ما بين 150 و180 كُتابا، وتضم أعدادا هائلة من التلاميذ، ومنها مثلا كتاب المعلم علي تطريا الذي درّس لحوالي 123 تلميذاً في سنة 1591م[10]. ولقد ارتكز القرآن والعلم أيما ارتكاز في تنبكتو، ما حفّز الناس على الرجوع إليها، وارتياد المدارس القرآنية والمساجد وحلقات العلم، حتى نبغ فيها عدد كبير من العلماء، وعند ذلك اكتفوا بما في تنبكتو والسودان، وأصبحوا لا يطلبون العلم إلى سواها، ولا يحتاجون إلى غير علمائها الراسخين في العلم. واشتهرت تنبكتو أيضا بجامعتها العريقة التي يمثلها جامع سينكوري المضاهي لجامع القرويين بفاس، والزيتونة بتونس والأزهر بمصر، وتخرج من جامعة تنبكتو العديد من العلماء في مختلف مناحي العلم، بما في ذلك علوم القرآن والحديث وغيرها من العلوم الإسلامية[11].

وحظيت مدينة تنبكتو في القرن 16م بما لم تحظ به أي مدينة أخرى من ممالك السودان، ولعل من أبرز عوامل ذلك ازدهار الحركة التعليمية، حتى أكسبها أهلها نوعا من القداسة، وهي قداسة الإسلام والكتاب المبين. وكان دور المدينة ظاهرا في نشر الثقافة في سهوب السودان الغربي، وأصبحت من بين المراكز الهامة في العالم الإسلامي، ما أسفر عن تحضر السكان وصلاح أحوالهم[12].

3- مدينة غاو والمدارس القرآنية:

تحتل مدينة غاو موقعا جغرافيا مهما عند عطفة نهر النيجر حاليا في جمهورية مالي، وتبدأ الحياة بها في حدود القرن 11 م تقريبا، وقد وصفها البكري فقال: «إنها مثل غانة ففيها أحياء خاصة للتجار المسلمين من عرب شمال إفريقيا» ويذكرها حسن الوزان عند زيارته لها في القرن 16م ويشبّهها بتنبكتو، حيث تنتشر بها المساكن الشعبية الغير جميلة أي المنظر القبيح، في الوقت الذي تتميز به قصور الملوك وحاشيتهم بالجمال والأناقة، وفي المدينة أيضا الكثير من الآبار وسوق للعبيد. وتميزت غاو أيضا بكثرة البضائع والخضار المزروعة في بساتين المدينة، إلاّ أنّ الحروب المتكررة والاستعمار الفرنسي بعد ذلك قد خرّب الكثير من معالمها، فلم يبق إلاّ المسجد وقبر الملك محمد، وتجدر الإشارة إلى أن قسما من سكان المدينة من الطوارق قد تولوا الدفاع عنها ضد المحتلين الفرنسيين[13].

وتعتبر غاو عاصمة لمملكة سنغاي، وتذكر بعض المصادر التاريخية أن تأسيسها يعود إلى القرن 2هـ/8م، وبلغ الإسلام أوج انتشاره في القرن 6هـ/12م[14] ،والظاهر أن غاو كانت أقل من تنبكتو فيما يتعلق بالثقافة والعلم، ولعل ذلك عائد إلى دورها كعاصمة سياسية. كما لم تكن

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

غاو أقل كثافة سكانية من بقية مدن مملكة السنغاي كتنبكتو وجني، إذ تشير الروايات التاريخية إلى أنها كانت مدينة كبيرة وعامرة، وصل عدد دورها إلى حوالي 8000 دار، ناهيك عن البيوت الصغيرة والأكواخ، في عهد الأسقيا محمد، كما قصدها التجار من دول الجوار ومن بلاد المغرب[15].

ولم تقتصر عملية بناء المساجد والكتاتيب القرآنية على مدينة تنبكتو فقط، بل شملت أيضا مدينة غاو في عهد الأسقيا محمد. وساهم الحكام والأثرياء في التمكين للإسلام ببناء المدارس القرآنية والجوامع، عن طريق الأوقاف على المساجد والأئمة والمؤذنين والخطباء والمدرسين أي مدرّسي القرآن الكريم والعلوم الإسلامية المختلفة في هذه الحاضرة (السياسية) الإسلامية[16].

ويقول محمد حمد كنان ميغا: «أن المجالس العلمية كانت تعقد ويحضرها الحكام، ومنهم أسقيا داود، وهناك مجلس الجمعة في كل أسبوع إثر الصلاة، علاوة على المكتبات العامة التي كانت توفر في مدينة غاو للبحث والمطالعة، ومن أشهر المكتبات مكتبة الأسقيا داود، ومكتبة أسقيا محمد الأول، ومكتبة أسقيا محمد بان بن أسقيا داود»[17]. وقد تجسدت المبادئ الإسلامية بشكل واضح وجليّ في مملكة غاو، حيث كان سلاطين السنغاي يجمعون العلماء والشيوخ أثناء الحروب لاستشارتهم في أمور المملكة والأخطار المحدقة بها، وتكون القرارات المتخذة جماعية. وفي عهد الأسقيا محمد، لم يكن لسلطة العلماء أية حدود، حتى أنّ الناس آمنوا بقدسية العلماء، واستمر الوضع على هذا الحال حتى القرن 19 و20م. وكان الكثير من العلماء يوصلون أنسابهم إلى الأسرة الهاشمية، لذلك لقبوا بالشرفاء، ذلك أن بعض المجتمعات تعتقد بأن كثرة الشرفاء في بلد ما يؤدي بأهله إلى الجنة[18].

لقد أتت الحركة التعليمية تدريس التلاميذ في الكتاتيب القرآنية والمساجد والجوامع أكلها في أرض السنغاي، خاصة خلال القرن 15 و16م، والتي تمثل فترة الأوج في مدينة غاو، والتي تحولت مع المدن الأخرى كتنبكتو وجني إلى مراكز ثقافية مرموقة، كما ظهرت مؤلفات كبار العلماء. ويظهر مما سبق الدور العظيم الذي قام به علماء غاو في نشر الثقافة وعلوم القرآن والسنة النبوية الشريفة، ما جعلها أي غاو مركزاً علمياً وثقافياً مشهوراً إلى جانب دورها السياسي باعتبارها عاصمة البلاد. ولا يكتمل الحديث عن كتاتيب ومدارس تنبكتو وغاو، والنشاط الفكري والثقافي للمدينتين دون التعريف بطبقة علماء هاتين الحاضرتين الإسلاميتين[19].

4- طبقة العلماء في تنبكتو وغاو:

لقد اعتنى الأساقي بالعلماء اعتناءً كبيرا الأمر الذي ساهم في نشر الثقافة الإسلامية وأمور الدين في المساجد والمدارس وقصور الحكام السنغائيين، واحتلت العلوم الدينية واللغوية صدارة العلوم، ولم تغفل بقية العلوم. كما وضع العلماء قواعد شرعية لتسيير شؤون البلاد[20]. وقد انقسم العلماء في إفريقيا الغربية إلى أشراف أغلبهم من الوافدين، والعلماء المحليون الذين توارثوا العلم مثل أسرة آقيت التي ترأست الهيئات العلمية لمدة تزيد عن المائتي سنة، والتي عيّن

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الأساقي منها القضاة في تنبكتو وغاو وغيرها، وينتمي أحمد بابا التنبكتي إليها[21]. وهناك أسرة أنذغ محمد وهي أسرة علمية مرموقة امتهنت القضاء والتدريس والإمامة[22].

ويمكننا ذكر بعض العلماء الوافدين والمحليين الذين ساهموا في التمكين للثقافة الإسلامية ونشر هذا الدين الرباني العظيم. ويضم النوع الأول الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التواتي التلمساني الذي قدم إلى غاو ودرس بها وألّف العديد من الكتب تخص سياسة الحاكم نحو المحكومين؛ أما صالح بن محمد أندي عمر المعروف بالعمري فكان ذا سمعة طيبة لدى السلاطين. وقدم أبو القاسم التواتي إلى تنبكتو وصلى الأسقيا محمد وراءه، وعند وفاته في 1516م وجد بالمدينة 50 عالما من توات. وقبله اشتهر أيضا الإمام سيدي يحي المغربي إمام المسجد الذي حمل اسمه، إلى أن توفي في 1463م[23].

أما طبقة العلماء المحليين فاشتهر منها محمود بن عمر بن محمد آقيت المولود في تنبكتو في 1463 والذي التقى في مصر المقدسي والقلقشندي. أما عبد الله بن عمر بن محمد آقيت فكان بارعا في العلوم الشرعية بتنبكتو، ووصف أحمد بابا صاحب نيل الابتهاج الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت بأنه كان متضلعا في الفقه والنحو واللغة والعروض. واعتبر محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي حجة الإسلام في السودان الغربي، لضلوعه في مختلف العلوم الشرعية، وقد أطنب أحمد بابا كثيرا في مدحه وإبراز مناقبه. ويعتبر أحمد بابا التنبكتي أشهر العلماء السودانيين على الإطلاق بفضل كتابه "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" في تراجم المالكية، وقد عاش خلال الفترة الممتدة ما بين 1556 و1627م، وتعود أصوله إلى قبيلة صنهاجة. واحتوى تأليفه هذا على تراجم لأكثر من 100 شاعر وأديب ومؤرخ[24]. وهكذا نلاحظ من خلال ذكر هذه الثلة من العلماء أهمية الحواضر الإفريقية في ترقية الروح الإسلامية للمسلمين، والالتفاف حول الأوطان الإسلامية والذود عنها، وهو الأمر الذي تجسد عند خضوع هذه المناطق الإسلامية للاستعمار الأوروبي، والذي واجهه الأفارقة المسلمون في تنبكتو وغاو وبقية الحواضر الإسلامية بقوة وحزم إلى أن تحققت الحرية والاستقلال.

لقد حظيت تنبكتو وغاو خلال القرن 16م بما لم تحظ به مدن أخرى في إفريقيا الغربية، وكان من أبرز العوامل التي جعلت المدينتين تزدهران بهذا الشكل: تطور الحركة التعليمية، وكثرة العلماء، ما جعلها قبلة لأعداد هائلة من الطلاب القادمين من مختلف المناطق في إفريقيا الغربية. وبالتالي ساهمت المدينتان في نشر الثقافة الإسلامية في سهوب السودان الغربي، وتحولتا إلى مركزين أساسيين لنشر العلوم الإسلامية في العالم الإسلامي، كما أسفر ذلك عن تحضر الساكنة وصلاح أحوالها.

الهوامش:

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

[1]- انظر: Anta Diop, L'Afrique pré-coloniale, Paris, 1960.

[2]- للمزيد انظر:

- نعيم قداح، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، دمشق، د.ت.
- عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين، الجزائر، 1973.
- ، ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو خلال القرن 16م، الأصالة، العدد 53، 1978، ص ص. 9- 20.

[3]- محمد حمد كنان ميغا، مظاهر الثقافة الإسلامية العربية في تنبكتو وغاو وجني في عهد الأساكي، قراءات تاريخية، العدد الثالث، 2008، ص ص. 26- 28.

[4]- السعدي، عبد الرحمن، تاريخ السودان، ميزوناف، باريس، 1946، تحقيق: هوداس وبونوا، ص. 22.

[5]- نفسه، ص. 252.

[6]- كعت محمود، تاريخ الفتاش، ميزوناف، باريس، 1964، ص. 154.

[7]- السعدي، عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ص . 21- 45.

[8]- نعيم قداح، المرجع السابق، ص. 142.

[9]- عبد القادر زبادية، ملامح الحركة التعليمية..، المرجع السابق، ص. 13.

[10]- كعت محمود، المرجع السابق، ص. 180.

[11]- محمد حمد كنان ميغا، المرجع السابق، ص. 27.

[12]- عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص. 20.

[13]- نعيم قداح، المرجع السابق، هامش 1، ص. 68.

[14]- محمد ألفاجالو، الحياة العلمية في دولة سنغاي خلال الفترة 842-1000م، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، 1413/1913م، ص ص. 109- 110.

[15]- محمد حمد كنان ميغا، المرجع السابق، ص. 27.

[16]- محمد ألفا جالو، المرجع السابق، ص. 118.

[17]- محمد حمد كنان ميغا، المرجع السابق، ص. 28.

[18]- نعيم قداح، المرجع السابق، ص. 136.

[19]- نفسه، ص ص. 140- 141.

[20]- محمد ألفاجالو، المرجع السابق، ص. 49.

[21]- نفسه، ص. 52.

[22]- نفسه، ص. 53.

[23]- محمد حمد كنان ميغا، المرجع السابق، ص. 29.

[24]- نعيم قداح، المرجع السابق، ص. 146.